

إشكالية الثقافة

الدكتورة: نسمة مخداني

أستاذة مكلفة بالدروس

جامعة بن يوسف بن خدة

الملخص :

إذا كنا نعتبر الثقافة عاملا رئيسيا من عوامل تجاذب الناس و ارتباطهم بعضهم ببعض و من ثم فهي تحقق التكامل، فإننا بالمثل نستطيع القول عن الثقافة قد تحقق التفكك و الصراع و معنى ذلك، أن الاختصار على النظر إلى الثقافة بوصفها عاملا من عوامل التكامل إنما يتضمن تصورا مثاليا والواقع أنه كلما إزداد المجتمع تعقيدا و تركيبا، تزايدت معدلات التباين و التنوع الثقافي، و يرجع ذلك إلى أن المجتمع المعقد ينطوي على عديد من الجماعات الفرعية و الثقافات المختلفة التي تتصارع من أجل إكساب سلوك أعضائها و قيمهم، وأساليب حياتهم مزيداً من الشرعية.

و من الضروري أن ندرك تفرّد الإنسان في مجال السلوك. فأينما يوجد الإنسان ومهما كانت درجة البساطة في ثقافته، فإننا نجده يمتلك أدوات ووسائل فنية معقدة من أجل توفير الطعام، والتحكم في تقسيم العمل إلى درجة ما وتنظيم اجتماعي وسياسي، ونسق من الاعتقادات والطقوس الدينية، وقدرة على الاتصال مع الآخرين عن طريق لغة معينة للحديث. و للتدقيق نفرق بين الثقافة العالمية التي تعبر عن ميل الثقافة إلى أن تكون نسقا من التصورات أو التمثلات للعالم والأشياء، و تعبيراً رمزيا عنها، و الثقافة الشعبية التي تعبر عن ميل الثقافة إلى أن تكون ممارسة طقوسية دافعية تؤدي وظيفة إعادة إنتاج الوجود : وجود الذات.

Résumé :

Si nous considérons la culture comme l'un des facteurs essentiels de l'attrait mutuel entre les gens et les liens qui s'établissent entre eux, et par conséquent de leur complémentarité,

nous pouvons dire également que cette culture peut être un facteur de désintégration et de lutte.

Considérer la culture comme étant l'un des facteurs de complémentarité renferme une vision idéaliste, bien que la réalité nous montre que plus une société est complexe, plus elle se différencie et se diversifie au plan culturel. Ceci est dû au fait qu'une société complexe est composée d'un grand nombre de sous-groupes et est traversée par des cultures différentes qui sont en lutte dont l'enjeu fondamental est la légitimation des comportements des valeurs et des modes de vie des membres qui appartiennent à ces sous-groupes. Quel que soit le degré de simplicité de la culture qui caractérise l'être humain, ce dernier possède les moyens de sa subsistance et qui lui permettent de mieux maîtriser la division du travail et de mettre en place une organisation socio-politique et de se doter d'un système de croyances et de rites religieux et d'avoir une capacité de communication avec les autres, par le moyen de la langue.

Précisons qu'il existe une différence (décalage) entre la culture savante qui tend à faire de la culture un système de représentation du monde et des choses, et comme étant sa forme d'expression symbolique et la culture populaire qui tend à faire de la culture une pratique rituelle motivante ayant une fonction de reproduction de l'existence : l'existence de soi.

تمهيد :

في حقيقة الأمر أنه لا يكاد يوجد في العصر الحديث أو الحالي مجتمع يخلو من أنماط السلوك المتصل بالتفكير الخرافي، برغم ما يبدو في هذا من تناقض مع ظروف العصر وما وصلت إليه العلوم والحضارة من تقدم.

إن بقاء بعض الظواهر في عالمنا المعاصر، يرجع إلى التنشئة الاجتماعية، فعن طريقها انتقلت هذه الظواهر من العادات الشعبية من جيل إلى جيل حتى أصبحت جزءاً لا يتجزأ من تراثنا الثقافي. وتوارث هذه العادات من جيل إلى جيل يضيف عليها احتراماً و قدسية يزيدان من تثبيتها و رسوخها وإلزامها لأفراد الجماعة. إذ يتكون عندهم الإعتقاد بأن هذه العادات هي السلوك الصائب و السليم الذي تم اختياره بمحك

التجريب و الخبرة العلمية، و بعد أن تثبتت صلاحيته بالممارسة الفعلية للأسلاف والأجداد، و لذا يجب أن يتمسكوا به.

تعريف الثقافة:

يعتبر مفهوم الثقافة من أكثر المفاهيم تداولاً و لكنه أيضاً من أكثرها غموضاً و تلونا "فالتعاريف التي اقترحت في المائة سنة الأخيرة على الأقل بلغت حداً من التنوع يصعب معه الإتفاق على تعريف و لقد صنف قبل ربع قرن كل من Kroeber و Kluckohn كلوكهن" ما لا يقل عن 100 تعريف للثقافة". (ليبب (طاهر)، 1997، ص 6)

تتردد هذه التعريفات بين مفهوم ضيق للثقافة مقتصر بالدرجة الأولى على النشاطات العقلية العليا أو على الإنتاج الذهني العالي المستوى و المعترف به من قبل المختصين، و بين مفهوم أقل ضيقاً يدمج في الثقافة، كل النشاطات الذهنية الشعبية و الرسمية الحية و الموروثة و بين مفهوم ثالث أكثر شمولاً يحاول أن يربط الثقافة بكل النشاطات الذهنية و الجسدية التي تخلق لدى جماعة معينة طريقة متميزة في السلوك و الحياة.

لكن جميع هذه التعريفات تشترك في نقطة واحدة هي تحويل الثقافة إلى مجموعة من المعارف و الإعتقادات و القيم و الأخلاق و العادات التي يكتسبها الفرد من جراء انتمائه إلى جماعة من الجماعات.

و الواقع أن الثقافة ما زالت تستخدم كإسم عام يطلق على ظواهر و سيرورات مختلفة و متفاوتة بل و متناقضة أحياناً، و ذلك حسب طبيعة المتكلم و الميدان المستخدمة فيه و الهدف.

التطور الحقيقي لمصطلح الثقافة يتجلى في البدايات الأولى لفهم المصطلح ذاته أو الثقافة بشكل عام، كـ (حالة) أو (وضع)، و ذلك في الفترة ما بين أواخر القرن الثامن عشر أو أواخر القرن التاسع عشر، و قد تم ذلك من خلال الفكر الاجتماعي لدى المفكرين الإنجليز و الألمان الذين استطاعوا بجهودهم العلمية جعل المفهوم المعاصر للثقافة أكثر شيوعاً و استعمالاً و يمكن القول إن الفكرة قد تطورت من خلال أربعة

مفاهيم، لا يزال لكل مفهوم تأثيره العلمي في مصطلح الثقافة، وهذه المفاهيم هي :
(البغدادي (أحمد)، 1996، ص 12).

أولاً : الثقافة بمعنى حالة أو عادة عامة للعقل مع تصور خاص لفكرة الكمال
الإنساني.

ثانياً : الثقافة بمعنى حالة عامة للفكر و التطور الأخلاقي في المجتمع ككل.

ثالثاً : الثقافة بمعنى المضمون العام للفن و الممارسة الفكرية.

رابعاً : الثقافة بمعنى السبيل الشامل للحياة المادية و الفكرية و الروحية للمجتمع
محل البحث.

لقد استبعد هؤلاء العلماء المعنى العام للثقافة المتصل بالزراعة و الحرث
و التربية، استخدموا المصطلح للدلالة على الإنتاج المادي و الفكري، من مصنوعات
يدوية و نظم اجتماعية و أدوات تقنية و أساليب العبادة و رموز التعبد، و غير ذلك
مما صنعه الإنسان لعالم الذي يعيشه، و بذلك أصبحت الثقافة شاملة من الناحية
الإصطلاحية لمجمل التراث الاجتماعي أو بمعنى آخر، أسلوب حياة المجتمع.

"الثقافة نتاج إنساني صاغه خلال مسيرته التاريخية، و هي معتقدات يقدمها،
و قيم يحترمها وعادات يمارسها وتقاليد يركن إليها، و سلوك يألفه ولغة يعبر بها
و آداب و فنون و معارف علمية، و تطلعات و آمال يسعى لتحقيقها. إن الإنسان
وحده من بين الكائنات الحية، قد تفرّد بصنع الثقافة فهي فارق نوعي بينه و بين
الحيوان، كما هي فارق كمي أو درجي بين الفرد والآخر و الجماعة البشرية
والأخرى." (الخوري (شهادة)، 1999، ص 10).

إن الثقافة هي التي تمنح الإنسان قدرته على التفكير في ذاته و هي التي تجعل منه
كائنًا يتميز بالإنسانية المتمثلة بالقدرة على النقد و الالتزام الأخلاقي و عن طريقها
نهتدي إلى القيم و نمارس الاختيار، و هي وسيلة الإنسان للتعبير عن نفسه و التعرف
على ذاته و البحث دون ملل عن مدلولات جديدة و حالات إبداع.

تشمل الثقافة مجموعة المعارف و القيم و طرائق التفكير و الإبداع الجمالي
و المعرفي و التقني و سبل السلوك و التصرف و التعبير و طرز الحياة، كما تشمل
تطلعات الإنسان إلى المثل العليا و البحث الدائب عن مدلولات جديدة لحياته و قيمه
و مستقبله و إبداع كل ما يتفوق به على ذاته." (الخوري (شهادة)، 1999، ص 10).

يظهر الفارق مباشرة في تحديد موضوع الثقافة : "هل هو نظام القيم والمعايير الذي ينظم حياة الجماعة و يتحكم بسلوك أفرادها و سلوكها الجماعي و استمراريتها أم هو الإنتاج الفكري للهيئة المثقفة من علماء و أدباء و فنانين، و الذي يشكل مرآة صادقة أو كاذبة، لحياة المجتمع بكل ما تعنيه كلمة مرآة من سلبية". (غليون برهان، 1990، ص 86)

فالثقافة تعني بالمفهوم الأول القاعدة الأساسية التي تقوم بضبط المجتمع لبيئته و تاريخه و سيطرته عليهما، أي في الواقع تعامله سلبي أو إيجابا معهما، وتعني بالمفهوم الثاني المتعة التي يحصل عليها الإنسان من الثقافة و استهلاك الإنتاج الثقافي. فالنظرة الأولى ترى في الثقافة مجموعة قواعد، و ترى فيها الثانية جملة منتجات و مواضيع استهلاك.

الثقافة عالم واسع، و هي كذلك عالم ضيق، قد تتسع حتى تشمل العالم فنقول عنها ثقافة عالمية. كما أنها قد تضيق حتى لا تتعدى حدود قرية، فنقول عنها ثقافة محلية، و إنها "قد ترتقي أرقى المسالك بالعقل الإنساني و الفكر اكتسابا، فتوصف بكونها ثقافة متمدنة، و قد تتحدّر إلى أدنى الدرجات بالعقل و الفكر أيضا، فتوصف بكونها ثقافة غير متمدنة، كالثقافة العنصرية، و لعل هذا يفسر وصف الثقافة بـ "السهل الممتنع" على الرغم من كونها ظاهرة حياتية لكل مجتمع على وجه البسيطة". (البغدادي (أحمد)، 1996، ص 9.)

الثقافة العالمية و الثقافة الشعبية :

تجدر الإشارة إلى أن الثقافة جزء لا يتجزأ من الحياة الاجتماعية. و هي لم تعد نتاج نخبة من المثقفين المبدعين فحسب، بل تشارك في صنعها و تنميتها قوى متعددة تنتج ثقافتها بأيديها و بعقولها معا كعملية متلازمة و متكاملة تعطي للثقافة طابع التأثير في تجديد الإنسان نفسه و في خلقه الثقافة المتجددة.

ها هنا نقترح تعريفا للثقافة في مستوياتها الثلاثة: من حيث هي إدراك، و من حيث هي تكيف، ثم من حيث هي تكيف. (بلقرين (عبد الله)، 1998، ص ص 42-43)

تكون الثقافة إدراكا، إذ هي - ابتداء - صورة (أو صور) تكونها الذات من العالم الخارجي. صورة يجري بناؤها بواسطة سلسلة من عمليات الاتصال الفكري

والجماعي بأشياء هذا العالم، وتمثلها على نحو من الأنحاء. لكن الثقافة ليست محض وعي بارد بالعالم إنها فوق ذلك طريقة للتكيف معه و تحقيق شروط البقاء فيه. من المفيد القول إن ذلك هو معنى العبارة الأنثروبولوجية الدارجة عن الثقافة بصفتها لحظة ما بعد الطبيعة، أي لحظة التاريخ الذي يبدأ مع انتقال فعالية الإنسان على بناء النظام الاجتماعي على أنقاض النظام الطبيعي ... فالتكيف هنا يشير على حركتين : إلى الوعي بالعالم على نحو يصبح بعض نواميسه قيد الإدراك و إلى بناء نظام ذاتي من التعاطي الوجودي معه على نحو يحفظ للذات وجودها و توازنها و هذا خط الإنعطاف نحو الحالة الثالثة الأرقى في تعبير الثقافة عن ذاتها، أي من حيث هي تكيف العالم، و إخضاعه و إعادة بنائه على قوام ينفصل عن المرجعية الطبيعية أو الاجتماعية الخارجية.

يسمح التعريف السابق باستنتاج ثلاث آليات في عمل الثقافة، الأولى نظرية أما الباقيتان فآليتان عمليتان. يعبر عن الأولى ميل الثقافة إلى أن تكون نسقا من التصورات أو التمثلات للعالم والأشياء، وتعبيرا رمزيا عنها. و يعبر عن الثانية ميلها إلى أن تكون ممارسة طقوسية دفاعية تؤدي وظيفة إعادة إنتاج الوجود: وجود الذات. أما الثالثة فيعبر عنها ميلها إلى التعبير عن آلية الإرادة فيها، من حيث يمثل الإخضاع و التكيف ذروة الإفصاح المادي عن تلك الإرادة. و هكذا تصبح عناصر و أبعاد الثقافة ثلاثية : فهي تتلقى، و ترد، و تنتج، أو بعبارة أخرى : تعي و تتفاعل وتفعل. (بقريرز عبد الله، 1998، ص ص 43)

ليست الثقافة المكتوبة بما فيها المعرفة النظرية والتجريبية إلا لحظة بسيطة من لحظات التعبير الثقافي يمكن تسميتها بلحظة التعبير عن الفاعلية المنطقية أو العقلية أو الاختيارية، للتمثل الإنساني للعالم. و هي إذ تظهر في صورة مكتوبة، تتخذ لغة معرفية و مفهومية خاصة بها يستقل بها، المجال المعرفي عن سواء من مجالات الثقافة المكتوبة كالأدب - مثلا - بأجناسه التعبيرية المختلفة.

لكن الثقافة - أيضا - هي التعبير الشفهي (غير المكتوب) ممثلا في أجناس مختلفة من الفنون، و من التعبير الحركي الذي يتخذ الجسد مادة له في المقام الأول. ففي الغناء و في النحت و الفن التشكيلي و في العمارة و النقش على الخشب أو المعادن

و الجبس و الرخام ... الخ. و في الوشم ... و في التطريز و الحياكة و سوى ذلك من نصوص التعبير الثقافي لا تقل قيمة عن النصوص المكتوبة في مضمير التعبير عن نوازع الذات و عن نوع تفاعلها مع العالم المحيط، بل نحن نستطيع أن نرصد التجليات المختلفة لهذا التعبير الثقافي حتى في المأكل والملبس، وطقوس العبادة و مراسم الإحتفالات و الأعياد و المآتم و غيرها، إنها جميعها أشكال مختلفة من الإفصاح عن الذات و عن الوجدان الفردي و الجمعي. و على صفحتها يمكن قراءة المجتمع الذي تعبر عنه و بنيته العقلية بتعبير "كلود ليفي ستروس" و شخصيته، ففيها يخرج ما يداخل مستودع الذاكرة من معطيات قابلة للتحليل الإجتماعي.

نحن إذن أمام نوعين من التعبير الثقافي "تعبير ثقافي يترجم الوجدان بلغة متنوعة تتراوح بين المستوى الفطري و المستوى المصوغ صياغة جمالية تركيبة على مسافة شاسعة هي المسافة التي قد تقوم بين الماويل و الأهازيج و بين البالية أو بين النظم الأركسترالية السيمفونية في الموسيقى أو بين تحريك الجسد على إيقاع ما بطريقة عفوية و بين الوشم و بين الفن التشكيلي و فن العمارة ... الخ و تعبیر ثقافي يترجم الفكر و الصياغة المكتوبة للرموز و يتراوح بين الأدب و بين المعرفة النظرية المفهومية ذات الصياغة العقلانية أو العلمية الصارمة (الفلسفة، العلوم ... الخ)." (بقریز عبد الله، 1998، ص ص 45-46)

و إن شئنا استعارة العبارات الأنثروبولوجية المتداولة نقول أننا أمام نمطين من الثقافة هما : الثقافة العالمية (culture savante) و الثقافة الشفوية أو (الشعبية) (culture populaire).

واضح من هذا التقسيم أنه لا امتياز للثقافة العالمية (المكتوبة) على الثقافة الشعبية (الشفوية) في مضمير التعبير عن الذات، ف كلا منهما يشكل طريقة من طرائق هذا التعبير، اللهم إلا ما في كل منهما من تفاوت في درجة النظام و التعقيد، حيث تبدو الثقافة المكتوبة أكثر من غيرها تراكما و نجاحا. غير أن المشكلة ليست هنا، نعني أنه ليست في وجود فوارق في أنماط التعبير و في درجات النظام فيه، بل هي في مستوى التمثل لدى كل منهما. و ذلك لأن هناك قدرا من التفاوت في وعي كل من الثقافة العالمية (المكتوبة) و الثقافة الشعبية (الشفوية).

هذا الجدل قديم بين طريقتين في تمثيل الأفكار و معيارها : "جدل بين فكرة المعرفة لذاتها وفكرة المعرفة للمجتمع، جدل بين الأكاديمي و المثقف، بين الملتزم بالمعرفة حصرا، و الملتزم بوظيفة المعرفة. و هو إذا كان قد أحدث انقساماً في صفوف المثقفين، فلأنه تعلق بتنوع في النظر إلى دور الثقافة، غير أنه انقسام تغري إلى طبيعة الثقافة ذاتها بصفاتها تنطوي على لحظتين : لحظة إنتاج المعرفة و لحظة توزيع المعرفة." (بقريرز (عبد الله)، 1998، ص 51)

تمثل اللحظة الأولى تعبيراً عن كيان المعرفة من الداخل : عن آلية مركزية فيها هي الإنصراف إلى البحث عن الحقيقة و هي - بالأساس - اللحظة التي تغري الأكاديمي و تمثل اللحظة الثانية تعبيراً عن اجتماعية المعرفة : عن آلية فيها هي الميل إلى الصيرورة قيمة من قيم الاجتماع لا فكرة يحملها الفرد فحسب. و هي أيضاً اللحظة التي تشبع حاجة المثقف الاجتماعي.

من الضروري أن ندرك تفرد الإنسان في مجال السلوك. فأينما يوجد الإنسان و مهما كانت درجة البساطة في ثقافته، فإننا نجده يمتلك أدوات و مواد أخرى فنية، و وسائل فنية معقدة من أجل توفير الطعام، و نجد أيضاً التحكم في تقسيم العمل إلى درجة ما و تنظيم اجتماعي و سياسي، و نسق من الإعتقادات و الطقوس الدينية، و قدرة على الإتصال مع الآخرين عن طريق لغة معينة للحديث. كل هذه الخصائص الثقافية تفنقر إليها الحيوانات الأخرى.

و قد ذهب بعض العلماء و الفلاسفة الاجتماعيين في محاولتهم لتحديد مجال الثقافة إلى أن يقصروها على الأفكار و التصورات المجردة، على أساس أن كلمة "الثقافة" ذاتها توحي بذلك و لكن هذا الرأي لا يجد على العموم ترحيباً من معظم العلماء الذين أتيحت لهم فرصة القيام بالدراسات الحقلية و الإتصال عن كثب بالثقافات التقليدية بحيث أمكنهم أن يلمسوا ملامح الثقافة و السمات الثقافية المختلفة في تداخلها و تفاعلها، و أدركوا بالتالي أن من الصعوبة بمكان، بل و من العبث فصل مظاهر السلوك العادية المشخصة و الملموسة عن الأفكار و التصورات و القيم التي تختفي وراء هذا السلوك.

إن آراء "مالينوفسكي" و "بواس"، و أمثال هؤلاء العلماء "لا يفصلون" الثقافة عن حياة الناس في المجتمع و إنما هم يعتبرونها أنماطاً من السلوك الاجتماعي و من هذه الناحية يصبح من العسير تصور وجود الثقافة بعيداً عن الجماعات البشرية أي المجتمع". (حسن نهاني) و الكيال (عبد الحميد)، 1997، ص 33)

و الثقافة في نظر "مالينوفسكي" Malinowski أداة يستطيع المرء بواسطتها أن يتغلب على مشكلات البيئة التي يعيش فيها، و التي يصادفها أثناء محاولات إشباع رغباته المختلفة. و على هذا الأساس تعتبر الثقافة "سقا من المناشط و الإتجاهات و الأشياء التي يلعب كل منها دوراً محدداً لتحقيق غاية معينة. أي أنها تؤلف كلاً متكاملًا تتساند فيه عناصر الأجزاء المكونة، كما أن هذه المناشط و المواقف و الإتجاهات تتنظم في شكل نظم اجتماعية كالعائلة، القبيلة و الهيئات الاقتصادية و السياسية و التعليمية و ما إليها". (حسن نهاني) و الكيال (عبد الحميد)، 1997، ص 34)

و يعتبر تعريف "فرانز بواس" F. Boas نموذجاً للتعريفات الوصفية، إذ أن الثقافة تتضمن كل العادات الاجتماعية في المجتمع المحلي، و استجابات الأفراد نتيجة العادات الجماعية التي يعيشون فيها، و منتجات النشاط الإنساني، أما التعريفات التاريخية، فهي تنتقي جانباً معيناً من الثقافة مثل التراث الاجتماعي، و ذلك على نحو ما ذهب إليه رالف لينتون. و المجموعة الثالثة تنظر إلى الثقافة كطريقة متميزة في الحياة مثلما ذهب "كلينبرج" O. Klindberg إلى القول بأن "الثقافة هي ذلك الكل المتعلق بأسلوب الحياة، كما تحدده البيئة الاجتماعية، أي أن الثقافة التي تعبر عن نسق من العلاقات الاجتماعية التي يكون كل منها نمطاً يمكن أن تكون نفسها مصدراً للتغير الاجتماعي، ذلك لأن الثقافة لها صفة التكوين التلقائي الذاتي الدينامي". (حسن نهاني) و الكيال (عبد الحميد)، 1997، ص 80-81)

خلاصة القول أن الثقافة في تعريفها البسيط هي جماع القيم المادية و اللامادية التي يخلقها الإنسان في سياق تطوره الاجتماعي و تجربته التاريخية. و هي تعبر عن مستوى التقدم التكنيكي و الإنتاج و التعليم و العلم و الأدب و الفن الذي وصل إليه المجتمع في مرحلة معينة من مراحل نموه الاجتماعي و الإقتصادي. و بجملة موجزة هي إنجازات الإنسان التي يعبر بها من خلال حياته و طرائقه في

التفكير و السلوك و العمل، و التي تأتي نتاجا لتفاعلها مع الطبيعة و مع غيره من البشر.

"إن تنمية المجتمعات لا تأتي إلا بتمتية أفرادها الذين يعيشون فوق أرضها ... و يتم هذا في إطار ثقافي ما، ترتضيه الجماعة، و عادة ما يكون هذا الإطار الثقافي في مجموعة من الأعراف السائدة و التقاليد و القيم المتوارثة و العادات المكتسبة التي قد تعود بجذورها ممتدة إلى الدين والمعتقدات، و ما إلى ذلك مما يشكل في النهاية ما يعرف بالثقافة الشعبية." (منير جادو (أمية)، 2000، ص 96).

يمكن القول بأن الثقافة هي التعبير الحي للقيم، و هذا يعني أن القيم هي المبتدأ و الخبر في مستوى الفعل الثقافي الإنساني، فالمبادئ هي قيم و الغايات توجهها القيم، و العادات تجسيد فعلي لحركة القيم، و المعارف العلمية أيضا هي ترجمة للفعل القيمي عند الإنسان، و هي قيم بذاتها تتحدد وفقا لما هو مرغوب و مرغوب عنه، لما هو مفضل أو مفضل عنه، لما هو جديد و خير و نبيل و جميل، لما هو سيء و شرير و ضيع و قبيح، لما هو أهم و أقل أهمية، لما هو جميل و أكثر جمالا، لما هو واقعي و أكثر واقعية، لما هو مفيد و أكثر فائدة، لما هو سام و أكثر سموا.

بعض المعتقدات السائدة في التراث الشعبي :

نشير في هذا السياق إلى أن الثقافة العربية تمتلك منظومة متغايرة من القيم التي توجد متنافرة ومتعارضة، حيث يلاحظ على سبيل المثال، أن الإيمان بقدرات العلم يترافق مع الإيمان بالخرافة والشعوذة و التطير، حب الأم و النظر إلى المرأة كموضوع للجنس، الإنتماء إلى الحزب السياسي و الإنتماء إلى العشيرة، تعليم المرأة و النظرة الدونية إليها، الإيمان بالقانون و الثأر في آن واحد.

بهذا يمكن الإشارة إلى عدة أمثلة من التراث الشعبي فمثلا :

هناك اعتقاد شائع بين الأهالي أن "المرأة الحبلية (الحامل)، إذا رأت ميتا، و لم تقم بالاحتياطات اللازمة فإن الطفل سوف يموت عقب ولادته مباشرة، و عليه فإن المرأة الحبلية عندما ترى شخصا ميتا، تقوم بقطع عقدها فورا لكي تسقط حبات العقد في حجرها ثم تقوم بعد ذلك بإقفاء الماء على وجهها، و يعتقد الأهالي أن هذا يؤمن حياة الطفل بعد ولادته." (منير جادو (أمية)، 2000، ص 103-104).

أكدت الدراسات الأنثروبولوجية على علاقة الوشم (بلحاج كاتلي، 1998، ص من 47-49) بالأفكار والمعتقدات السحرية لدى كافة الشعوب بحيث كان يتم بشكل فرض بين سن السابعة والعاشر، وكان بمثابة التعويذة الأولى ضد القوى الشريرة التي تطارد الإنسان وتسبب له المكائد والمخاطر، وعلى الرغم من تعدد وظائفه (أي الوشم) عبر مراحل تطور حياة الإنسان، فقد ظل يحافظ على أشكاله الهندسية والكتابية ورموزه الدلالية كما أنه استطاع أن يرافق الأجيال عبر الحقب والأزمان وينال من اهتمامها العناية الكبيرة، ولا سيما عند القبائل العربية والعجربة اليوم ... ومما يؤكد علاقة الوشم بالطقوس السحرية أيضا ما ذهب إليه "علي زيعور" لما رأي أن الوشم نوع من التضحية التي كان يتقرب بها الإنسان البدائي إلى معبوده كي يضمن له حياة أطول، لأن في الوشم يسيل الدم، و الدم عنصر مقدس و شراب الآلهة المفضل و النزيف الذي تحدثه عملية الوشم هو نوع من الفداء أو التضحية التي يقدمها الإنسان من أجل ضمان حياته، ومن المعتقدات الشعبية لدى الهنود أن الوشم يجنب المرأة الترميل ...

و يعتقد سكان غرب الجزائر أن للوشم علاقة بمرض "الليل" الذي يصيب الأطفال الصغار و الذي لا مفر منه إلا بـ "التشراط" ومعناه الوشم على الجبهة. و في بعض المناطق العربية يستعمل الوشم كتعويذة لإبطال الأعمال السحرية، و رد العين و الحسد فالمثلث في مصر، و وشم "الطرناشة" عند البربر المغاربة، يستخدمان ضد إصابة العين.

تؤكد الدراسات الفولكلورية و الروايات الشعبية على أن الوشم كان يتم في مرحلة معينة من حياة الفتاة، و هي مرحلة البلوغ، و هنا يمكن طرح السؤال التالي : ما علاقة الوشم بهذه المرحلة بالذات ؟ و هل لذلك ارتباط بقضايا التحريم أم أن له دلالات أخرى ؟ إن ارتباط الوشم بهذه المرحلة يعد حدثا هاما و مميزا بالنسبة للحياة الجنسية عند الفتاة، لأنه يعبر من وجهة نظر الاعتقاد الشعبي، عن نضجها الأنثوي و بداية انتقالها إلى مرحلة جديدة من حياتها "و قد ذكر لنا أحد شيوخ منطقة بلعباس أنه كان يمنع على الفتاة أن تلعب مع الأطفال بعد أن يوشم لها. و مما يؤكد هذا الاعتقاد ربط الرجل بين القيم الجمالية للوشم و الحياة الجنسية عند المرأة، و لذا كان الوشم في التصور الشعبي علامة للنضج الجنسي، و قيمة من قيم الجمال الأنثوي

المحركة للرغبة الجنسية. و من ثم تكون المرأة غير الموشومة فاقدة لأنوثتها و جمالها و دليلا على البرودة الجنسية فيها. " (بلحاج (كلملي)، 1998، ص 49)

بالإضافة إلى ما سبق نجد أيضا أهم عناصر الأدب الشعبي، ألا و هو الحكايات الشعبية التي تشكل العمود الفقري بالنسبة لأدب الأطفال الذين يستمتعون بسماعها و يطالبون بها دائما و أبدا.

الحكايات الشعبية هي التي "ينسجها الخيال الشعبي حول حدث تاريخي أو بطل يشارك في صنع التاريخ لشعب من الشعوب، يستمتع الشعب بروايتها و الاستماع إليها، و يورثها الأبناء والأحفاد" و هي لا تخرج عن الأدب العام، لها سمات تتميز بها عن غيرها من ألوان القصص الأخرى و هي : العراقة و الصدق و الجماعية. " (الدويك (محمد طالب)، 1990، ص 203).

و القصص الشعبية من المصادر الرئيسية لأدب الأطفال يعتمد عليه و يثري حكاياته، و من هذا المنطلق تكون القصة الشعبية هي كل صيغة أو نموذج من الحكايات المكتوبة أو المنطوقة و رثتها الأجيال المتعاقبة أعواما طويلة و هي بذلك تشمل القصص الشعرية الحماسية للأطفال، و الأناشيد و الأغاني و الأساطير القديمة و الأغاني الشعبية، و حكايات الحيوان.

تؤدي الحكايات الشعبية بأنواعها المختلفة دورا في إثراء المعرفة البشرية بتناقلها أحداث الحياة من فرد إلى فرد، و من جيل إلى جيل و من مجتمع إلى مجتمع، و هي بهذا تحمل تصورا و وصفا لقطاعات من الحياة الإنسانية و الأحداث التاريخية و الجغرافية لما يصل إلينا من خلال التاريخ المدون. و عليه يمكن القول "بأن الحكاية الشعبية هي "تسيج متكامل نسجه الشعب متضمنا تصورات و عاداته و تجاربه، خبرة الحياة يقدمها في أسلوب فني و بناء روائي. " (الدويك (محمد طالب)، 1990، ص 204)

أما بالنسبة للأمثال الشعبية تعد من الأعراف التي تتحكم في المجتمع، مكانتها حية قوية في القلوب و النفوس، كما يسير عليها و وفقها الناس حيث يأخذون بما تمليه عليهم، يتصرفون بوحى منها يتعاملون كما تخطط لهم، و تقاوم من ناحية أخرى من يحاول التفرد في التصرف أو الخروج عما رسمه المجتمع من قيم و مفاهيم متبعة، إنها تعيش فيهم، تحيا في نفس كل منهم حتى أصبحت جزءا لا يتجزأ من حياتهم المعيشية و سلوكهم اليومي.

تلعب الأمثال الشعبية دور القوانين في المجتمعات التي ليست لها قوانين وضعية مكتوبة "فهي دستور و قانون العامة يعتنقها الناس و يؤمنون بها بشدة لذا أثرت فيهم و حددت سلوكهم وتصرفاتهم و اعتمدوا عليها في دعم كلامهم و تأييد أقوالهم و تأكيد آرائهم. و لهذا وجدنا الأمثال و كأنها تكاد تكون نوعا من السلطة الأدبية تفرض على العامة من الناس شكلا معينا في تعاملهم و يأخذ بها معظم الأفراد، شأنها شأن كل الظواهر الإجتماعية الأخرى الصاغطة على أفراد المجتمع." (سدي محمد)، 1997، (ص 25-26)

لقد منحت الثقافة الشعبية في مجال الرعاية الصحية حقوقا لا حصر لها ما بين ممارسات عقائدية سحرية طبية شعبية أو طبية رسمية أو حتى من خلال الدجل و الشعوذة.

و ينطلق هذا الحق من الإعتقاد الشعبي بأن (لكل داء دواء) و أن الذي (يخلق المرض، خلق الطب و الدواء)، و من ثم فإن كل مرض من الممكن شفاؤه، ما لم تكن نهاية المريض مقدرة في تلك اللحظة. "هنا يستحيل على أي طب أن يغير مشيئة الله، و يحفل التراث الشعبي بالرقى و التعويذ و التمايم كما قد يتم بالأساليب الطبية التقليدية أو باستخدام مشروط الجرح أيضا." (منير جادو (أمية)، 2000، ص 26)

و لكن على أية حال أن الفئة الأولى من الوصفات تحتل المكانة الأبرز و الأسبق، و كذلك فإن مضمون الوصفات العلاجية بنوعها يتضمن :

1 - الفئة الأولى ذات الطبيعة السحرية : و هي تضم كل العناصر المستخدمة في الأعمال السحرية العادية، كالأسماء و الآيات أو طاسة الخضة أو الرجفة و الأحجبة ... الخ.

2 - الفئة الثانية و هي الوصفات الطبية التقليدية : و هي كل العناصر التي تتيحها البيئة الطبيعية من نباتات و حيوانات، و كلها أشياء عادية قد تستخدم كما هي، و قد تعالج على نحو معين، قد يكون شديد التعقيد أحيانا، و ليس من الضروري أن يستخدم العنصر النباتي أو الحيواني كله، بل إن الأمر قد يقتصر كما هو الحال عند استخدام عنصر حيواني على عضو منه ...

الحقيقة أن الإنسان يلجأ إلى الخرافة و الشعوذة عندما يعجز عن تفسير الظواهر أو حل المشكلات التي تواجهه حلا علميا و موضوعيا، مثل هذا التفسير حتى و إن كان خرافيا فإنه يريح الإنسان و يخفض عنده حالة التوتر عندما يقف عاجزا عن تفسير ظواهر الموت و المرض و الزلازل و البراكين أو الفقر أو العوز. (عبد الرحمن)، 1995، ص 196

لكل مجتمع تراثا و ثقافة خاصة، و قد لازمت الإنسان عبر العصور و الأجيال منذ أن سكن الكهوف حتى عصر ناطحات السحاب.

الخاتمة :

و لقد مرت الثقافة البشرية بثلاث مراحل أساسية : (عبد الله نوح الشهري، 2000، ص 68)

المرحلة الأولى : كانت فيها الثقافة شفاهية، حيث كان التواصل يحدث بشكل مباشر بين المتحدث و المستمع، و هي أمر تستخدم فيه الوسائل اللغوية، و ما يصاحبها من تأثيرات أخرى من لغة الجسم و الإشارة و التأثير الحي.

المرحلة الثانية : مرحلة الكتابة التي تطورت في صورة لاحقة مع انتشار الطباعة و فيها تخلص القارئ من سطوة الوجود الحي لمحدثه ليختلي مع النص المطبوع المجرد يقرؤه كاملا أو يختار منه أو يتفاعل معه أو يتخلى عنه.

المرحلة الثالثة : و التي نعيش على أعتابها الآن فهي مرحلة التواصل الإلكتروني و طرفه هو ذلك يتحكم في جهاز الإرسال و يبيت وسائل لا تنتهي إلى الجمهور المتلقي الذي ما عليه إلا أن يتلقى كل ما يصوب نحوه من وسائل إعلامية و دعائية. و بالتالي يملك (المراسل) القدرة على توجيه هذا الجمهور (المرسل إليه) لكل ما يصدر سواء أكان كاذبا أو صادقا، إنها إحدى صور السطوة الإعلامية و الثقافية التي يملكها الأقوى.

قائمة المراجع :

- 1 - البغدادي (أحمد)، "في مفهوم الثقافة و الثقافة الكويتية"، عالم الثقافة، المجلد 24، عدد 4، أبريل 1996، ص 12.
- 2- الخوري (شحادة)، "الثقافة العربية ... سمات و اتجاهات"، المجلة العربية للثقافة، عدد 37، سبتمبر 1999، ص 10.
- 3- الدويك (محمد طالب)، "الحكايات الشعبية من أهم عناصر الأدب الشعبي"، التربية، عدد 95، ديسمبر 1990، ص 203.
- 4- الشهري (عبد الله نوح)، "في التراث و الثقافة"، المنهل، المجلد 61، عدد 565، أبريل 2000، ص 68.
- 5- العسوي (عبد الرحمن)، "الخرافة في أذهان الشباب العربي"، التربية، عدد 24، 1995، ص 196.
- 6- بلحاج (كاملي)، "الوشم سيميوطيقا و طقوس (قراءة في لغة الأشكال و الرموز)"، كتابات معاصر، المجلد 9، عدد 35، أكتوبر - نوفمبر 1998، ص 47-49.
- 7- بلقرين (عبد الله)، في البدء كانت الثقافة، نحو وعي عربي متجدد بالمسألة الثقافية، المغرب : دار البيضاء، 1998، ص ص 42-43.
- 8- حسن (تهاني) و الكيال (عبد الحميد)، الثقافة و الثقافات الفرعية، الإسكندرية : دار المعرفة الجامعية، 1997، ص 33.
- 9- سعدي (محمد)، "صورة العمل و دلالاته الاجتماعية و الثقافية في المثل الشعبي"، إنسانيات، عدد 4، ربيع 1997، ص ص 25-26.
- 10- غليون (برهان)، إغتيال العقل، الجزائر: موفم للنشر، 1990، ص 86.
- 11- لبيب (طاهر)، سوسيولوجيا الثقافة، تونس: دار محمد علي الحامي للنشر، 1997، ص 6.
- 12- منير جادو (أميمة)، "حقوق الطفل بين الثقافة الرسمية و الثقافة الشعبية"، الحداثة، المجلد 24، عدد 47-48، ربيع 2000، ص 96.